البصرة في ظل الحكم العثماني
دراسة في وصف البصرة وسكانها
خلال القرن التاسع عشر

أ. م. د. ناهده حسين علي الاسدي

ملخص البحث

تعد الدراسات التي تهتم بالواقع الحياتي والاجتماعي من الدراسات المهمة في فهم واقع وحياة وتاريخ المجتمعات ، لذلك فأنها حظيت بمساحة واسعة من الاهتمام في كتب الرحلات وفي الدراسات الاكاديمية ، ولعل ابرز مجال من مجالات الدراسات الاجتماعية هي المتعلقة بالإنسان واقعه وحياته ، لذلك اخترت بحثي لان يعالج قضية محددة تهتم بدراسة وصف البصرة وسكانها من حيث التركيب السكاني وعدد السكان والعوامل والظروف التي على ضوؤها يتقرر الحجم السكاني ، لذلك فان دراسة احوال سكان البصرة ارتبط بشكل كبير بالواقع الاداري والسياسي والاهمال التي اتسمت به احوال العراق واحوال البصرة على وجه الخصوص في عهد الدولة العثمانية ، فضلا عن ارتباطه بشكل وثيق بالواقع الصحي ، اذ اخذت الامراض والاوبئة تفتك بالسكان ،وتلقي بضلالها وانعكاساتها السلبية على الحياة العامة وعلى التجارة ، لذلك فان دراسة اوصاف البصرة واحوالها وسكانها لها اهمية في مجال الدراسات التاريخية لأحوال العراق في ظل الادارة العثمانية ، وبشكل خاص احوال البصرة في القرن التاسع عشر ، وقد استخدمت مصادر متنوعة في معالجة دراسة احوال البصرة وسكانها ، ولعل ابرز هذه المصادر كتب الرحالة الذين زاروا البصرة وكتبوا عن احوالها ، فضلا عن الدراسات الاكاديمية التاريخية الاخرى .

وصف البصرة

كثير من الرحالة الذين زاروا العراق وعرجوا على البصرة قدموا وصفا للمدينة من حيث منظرها وعمارتها ونظافتها ، ووصف حقيقة اوضاعها كمدينة خلال فترة حكم الدولة العثمانية ، وكل يراها من الزاوية التي شاهدها فيها او زاوية دوافعه وثقافته ، ولكن في كل الاحوال فانهم يقدمون

صورة لا يمكن للباحث ان يتجاهلها ، فهي اوصاف لشاهد عيان ، ومن خلالهم وصفهم يتمكن الباحث من تحديد ملامح وحياة وتطور البصرة في اوقات مختلفة من حكم وادارة الدولة العثمانية.

يصف نيبور (1765)البصرة بانها اكثر مدينة اسلامية في القذارة وفقدان النظافة واكثر البيوت تصب المياة القذرة لمطابخها في الطرقات التي ليست معبدة بالحجارة ، بل ان اكثرها لطت مجاريها على الطرقات ([1]) ، ولكن في المقابل لا يتجاهل نيبور محاولات التطور والتحسن في اوقات معينة ، وكما اشار نيبور في مكان اخر ، فقد تمكن افراسياب وهو احد وجهاء البصرة من ان ينال ولاية البصرة من العثمانيين ، وكان يشجع الاجانب على الاستقرار فيها ، وقد تولى البصرة من بعدة ابنيه علي باشا و حسين باشا، فقد جعل علي باشا من القرنة قلعة ثم زاد حسين باشا في تحصينها بسور ثاني ، فضلا عن ان حسين باشا قام بتوسيع مدينة البصرة ، وقام بمد اسوارها حتى النهر ، وبالتالي فقد اضيفت للمدينة كثير من البساتين وحقول المدينة ، وفي عهده ازدهرت التجارة ، فضلا عن ان حسين باشا قام بطرد القوات العثمانية مرات عديدة وهي تحاول اقتحام المدينة ([2]). لذلك فان حال مدينة البصرة مرتبط بشكل وثيق بن يتولاها وقدرته على القيام بضبط الاوضاع فيها ، وتحقيق الاستقرار ، فضلا عن ما مدى تحقيق التنظيم والادارة ، فانها عوامل لها دور مهم ومباشر في تقرير حال المدينة وسكانها .

والبصرة لم تشهد تطورا واصلاحا وتنظيما بعد حكم افراسياب ، وكان اخر عهد للبصرة في الاستقرار والازدهار السكاني هو نهاية حكم ال افراسياب في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، اذ توالت عليها المحن والاضطرابات ، فغزاها الفرس عام 1756 وشردوا اهلها من ديارهم ، ثم تعرضت لهجمات القبائل التي تسكن اطراف المدينة ([3]).وبالتالي فان البصرة رهينة اوضاعها السياسية والادارية ، فضلا عن العلاقات الخارجية ، والصراعات السياسية الاقليمية ، زيادة على الوضع القبلي الداخلي وتأثيره على الاستقرار في المدينة، ووصف البصرة في رحلة اشتر(1864) لا تختلف كثيرا عن وصف نيبور بعد قرن من الزمان، فهي بلدة صغيرة نصف خربة يسكنها خمسة او ستة الاف نسمة ، وكان منظر بيوتها واسوارها المتهدمة يدل على مقدار ما كان قد اصابها من انحطاط وتخلف ، جدرانها متداعية ومساكنها متروكة ، في حين يذكر انها المنطقة التي تتحكم وتحتكر طريق التجارة مع الهند ، وكانت مدينة ثرية مزدهرة تمتلئ مخازنها بالسلع والبضائع المستوردة من الشرق والغرب ([4]). وبذلك فان حالة البصرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر هو ليس وصفها الحقيقي عندما كانت زاخرة بالحياة والحضارة والتقدم ، فقد اصابها الاهمال والتخلف وتردت اوضاعها ،وعلى الرغم من اهميتها الاقتصادية وموقعها الاستراتيجي ، الا انها تعرضت الى اوضاع وظروفا ، فضلا عن الاهمال

وسوء الادارة ، مما جعلها تعيش بصورة مغايرة لحالها الذي كانت توصف به بوصفها زاخرة بالحياة والحضارة .

ولكن الغريب في الامر انه في رحلة تنكو اينهولت عام 1866رائ البصرة بزاويه ورؤيا مختلفة عن وصف اشتر على الرغم من تزامن الزيارتين والرحلتين في وقت متقارب ، فيصف البصرة عندما دخلها بانه وجدها ضاحكة الوجه الى حد ما ، فالقناة تحف بها الرياض واشجار النخيل وتطل عليها شرفات الدور تؤلف منظرا شعريا ، واكثر الشرفات مغطاة بسقوف من الخشب المنحوت محمولة على اعمدة خشب ملونة ، وتمتد الاسواق على جهتي القناة وافرة البضائع ، وفي البصرة مطاعم لجميع الناس ومقاه شعبية واسعة كثيرة الرواد ، ولم يبقى من البصرة القديمة الا مسجدان وسور منهدم وبقايا الحصن المتصدع وطرق قذرة متعرجة بخلاف البلدة الجديدة على القناة ([5]).لذلك فانه يبدو انه اطلع على مدينة انشات على مساحة جديدة تختلف عن المدينة القديمة .

كانت البصرة في عهد داود باشا اخذت تدب فيها روح المدنية ونالت بعضا من الاصلاحات ، ولكنها ما تنجو من ظلم متسلميها المستبدين من المماليك الاتراك ، وبعد انتهاء حكم داود باشا وحتى عام 1883 كانت البصرة متصرفية وتولى عليها ولاة مستبدين لا يبالون بالظلم وقبول الرشوة وابتزاز اموال الناس ، ولا يهمهم سوى منافعهم الشخصية ، وخاصة في عهد نافذ باشا وهداية باشا ، ولكن مع ذلك فان البصرة في عهد السلطان عبدالحميد الثاني زادت عمارتها ونفوسها وصارت حسنة الاسواق كثيرة العمائر ، ولكن مع ذلك كله فان الوصف العام للبصرة في اواخر العهد العثماني انها كانت تعمها الفوضى والاضطراب ([6]).وبالتالي يبدو جليا ان افتقادها للادارة السليمة وسوء ادارة وتصرف متسلميها وانشغالهم باهوائهم ومصالحهم جعل البصرة تعيش التخلف وتعمها الفوضى والاضطراب ، وتنعدم تاثيرات الاصلاحات المحدودة التي تجري هنا او هناك في اوقات مختلفة .

ووصف خورشيد باشا القرنة بانها قصبة يقيم فيها الاهالي وجميعهم من الأعراب ، ويوجد نهر ينبُع من (لورستان) ، وقد كان ذلك النهر يمر فيما مضى بأراضي مقاطعة (الحويزة) ، ويطلق عـرب (خوزستان) و(الإيرانيون) على ذلك النهر اسم نهر (كرخة) ،أما رعايا الدولة العثمانية فيطلقون عليه اسم نهر (سويب) يصُب ذلك النهر في مياه نهر (شط العرب) في مكان جنوب قصبة القرنة على بُعـد نصف ساعة منها، وقد ذُكر في كتاب (جهاننما) وجميع الكتب التاريخية أنه كانت هناك مدينة تُسمى (أبلة) وقد كانت مجاورة لقصبة القرنة ولكنه لم يبقى لها أي أثر ، وكذلك لم يبقى أي أثر للقلاع التـي كانت موجودة هناك ، ولم يتبقى شيء ما عدا حدائق النخيل التي توجد على ضفتي الأنهار وتروى تلك الحدائق من بعض الأفرع المائية التي تتفرع من الأنهار([7]).

وصف كوبر عام 1893 ميناء البصرة بانه حديث التكوين والمدينة لا تبتعد مسافة بعيدة عن النهر ، ووصفها بانها مزيجا غريبا من الشرق والغرب ، وتقع فيها قنصلية وواحدة واثنان من المباني التجارية للشركات الاجنبية ، وعدد من البواخر تقع على جهة واحدة من النهر ، وكانت هناك حشود من العرب والزنوج ، والبلام الشبيهة بالأفعى ، ووصفها بانها تمثل الشرق القديم ،وانها تقع على بعد ميلين من النهر، كان الجو منعشا وبهيجا ، ولا يمكن تصور اكثر من تلك المتعة الصباحية المبكرة ، واعطى وصفا للتنقل بين النهر ووصف المدينة بانها بندقية الشرق ، ووصف مشهد اشجار النخيل بالساحر([8]).

فالبصرة تقع في ارض واطئة ، وهي لهذا عرضة للفيضانات التي يتكرر حدوثها ، اما نتيجة ازدياد المياه وطغيانها او بسبب القبائل التي تكسر السداد المحيطة بمجرى النهر ، وبالقرب من المدينة مستنقعات من المياة تتصاعد منها ابخرة موبؤة ، لهذا كانت وجوه سكانها شاحبة ، ويعد فصل الصيف بحره اللاهب من اصعب الفصول على الاوربيين الذين يسكنون البصرة ، وفيه يحصد الموت عددا كبيرا من الارواح ، فيقل عدد السكان ([9]).

في حين يصفها الكابتن الكسندر هاملتون بالقول انها تقع في اقصى شرق الممتلكات التركية ، تبعد حوالي ميلين من نهر الفرات ، وفيها نهر صغير يجري عند اطرافها على الجانب الغربي ، ويفرغ مياهه في نهر الفرات ، وتبعد المدينة حوالي ثلاثين فرسخا عن البحر ([10]).اذن نحن نتحدث عن مدينة تمتلك التاريخ الزاخر بالحياة والحضارة والعطاء وتمتلك الموقع التجاري والاقتصادي الاستراتيجي ، لكنها في الوقت نفسه مدينة تقع في اطراف الحكومة التي تحكم البلاد ، وفي وقت كانت فيه الدولة العثمانية تعاني من الضعف ، وفي الوقت الذي كان فيه العالم يشهد ويحصد ثمار الثورة الصناعية ، فان الدولة العثمانية تعيش الضعف وسوء الادارة والتهديد بالتقسيم .

احتفظت البصرة بمكانتها الجغرافية والتجارية والعمرانية في منطقة الخليج العربي ، ووصفها ولهام في مطلع القرن العشرين بانها مكان بهيج قياسا للمدن الاخرى التي تقع على الخليج العربي ، ووصفها بالسعة والنظافة ، وشاهد الدور الشاهقة والمخازن الكبيرة والمنشئات الحكومية وقصور التجار الانيقة ([11]).

وكانت مدينة البصرة طيلة القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر تطل على نهر العشار فقط على بعد عدة اميال من شط العرب تحيطها الاسوار الخربة المتداعية من ثلاث جهات ، تتخللها خمسة ابواب ، وقسمها العشار الى قسمين ، وان معظم البيوت والاسواق وسراي الحكومة ودائرة البلدية والكمارك كانت تقع على القسم الجنوبي من نهر الفرات ([12]).ومن ذلك نخلص الى القول بان البصرة كانت مزدهرة في العصور الاسلامية واحتفظت بمكانة متميزة ، الا ان مكانتها في القرنين

الثامن عشر والتاسع عشر تراجعت واصبحت مهملة ، وان عمارتها وبيوتها ونظافتها وادارتها لم تكن بمستوى من التطور والحداثة ، لكنها مع ذلك احتفظت باهميتها التجارية ، وان طبيعتها وكونها مطلة على النهر وتكثر فيها اشجار النخيل ، فقد احتفظت بجماليتها ومناظرها الخلابة .

التركيبة السكانية

موضوعة سكان العراق عموما وسكان البصرة(*) على وجه الخصوص اخذت مساحة من الاهتمام في كتب الرحالة الذين زاروا العراق ،وثم تناول موضوع السكان من خلال جوانب متعددة كالعدد والاحصائيات ، فضلا عن وصف الانسان والتحديات التي تعرض لها ، ولعل خورشيد باشا يقول في رحلته إن أهل البصرة الأصليين قد انقرضوا واختفوا منذ فترة ، أما الأهالي الذين يقيمون بها حالياً فمعظمهم من العربان والبعض الآخر من الأعراب الذين انتقلوا إليها من أماكن أخرى مجاورة لها واستقروا بها ، كما كان يوجد بالبصرة قديماً أغنياء وتجار وعلماء كثيرون ، ولكن حالياً لم يتبقى منهم إلا القليل. ويتبع معظم أهالي البصرة الدين الإسلامي ، كما يوجد أيضاً بعض الطوائف اليهودية والكلدانية ، وينقسم أهالي البصرة المسلمين إلى أربعة أقسام فمنهم قسم يتبع المذهب الشافعي والقسم الثاني يتبع المذهب المالكي أما القسم الثالث فيتبع المذهب الحنبلي ولكن أغلبيتهم يتبعون المذهب الشيعي وهؤلاء هم القسم الرابع ، ويتحدث أهل البصرة اللغة العربية وهي اللغة الأصلية عندهم ، ولكن بعضهم يتحدثون اللغة الفارسية واللغة التركية ([13]).وبالتالي فان وصف الانقراض لا يبدو عمليا وواقعيا ، فقد يحدث تغيير وتطور لكن من الصعب القول بالانقراض ، فضلا عن ان خورشيد باشا يستخدم كلمات التصغير كالعربان والاعراب ،وانه لم يجيب عن سبب هذا الانقراض حسب وصفه .

يوجد في البصرة اعداد من اليهود الذين يقول عنهم الحاخام بنيامين ان عددهم كان ابان رحلته الفان تقريبا ([14]) ، وهم يعيشون على السمسرة والصيرفة ، الا ان الاتراك يبقون هذه الشريحة من الناس بمستوى ادنى لاسباب سياسية ، وهناك ايضا حوالي مائتين من المسيحين من اتباع الكنيسة اليونانية([15]). ويسكن الفرس(*) في البصرة قبل تأسيسها وبقوا فيها ، فضلا عن اعداد الاسرى بعد الحروب الاسلامية ، والذين اعتنقوا الاسلام وتعلموا العربية ، ومن الناحية الاجتماعية فهم يدخلون في خطط القبائل العربية ([16]).كان مجتمع البصرة زاخرا بالعلماء والادباء والفقهاء والمتصوفة ، واصبحوا يشكلون طبقة اجتماعية لها تأثيرها الواضح على الحياة الفكرية في البصرة ([17]).

وفي احصائية اخرى تعود الى عام 1898-1899 توزع السكان حسب المعتقد ، فالسنة مجموعهم 261،850،000 نسمة والشيعة 662،845،000 نسمة ، فضلا عن الارمن والكاثوليك والصابئة واليهود ، اذ كان عدد اليهود في البصرة خمسة الاف نسمة ([18]).لذلك فان العرب هم سكان البصرة الاصليون منذ تأسيسها حتى الوقت الحاضر، وان هوية البصرة هي هوية عربية اسلامية .

ولغرض معالجة مسالة السكان والتحديات التي توجههم في البصرة ، نعود الى ما ذكره الرحالة ، ونود ان نتابع ذلك من خلال اعتماد التسلسل التاريخي للرحلات لكي نطلع ونتابع التطورات السكانية والاحصائية والتطور التاريخي للمجتمع (*).

ولعل من اهم ما يستحق الدراسة في الجانب الاجتماعي واحوال السكان هو ما تناولته كتب الرحالة والمتابعين لهذا الشان من وصف وارقام واحوال ، مع الوقوف على اسباب الزيادة والنقصان في السكان ، اذ ان مسالة السكان ترتبط بجملة من العوامل منها الاوضاع السياسية والاستقرار ، فضلا عن الادارة والخدمات ، وتعد مسالة اهمال الخدمات الصحية المسالة الابرز وتعد التحدي الاكبر الذي واجه مجتمع البصرة في مواجهة الامراض التي تفتك بسكانها.

فقد فتك بالبصرة في عام 1691 وباء الطاعون وقتل اكثر من ثمانين الف من سكانها وهرب المتبقي منها ، بحيث انها بقيت خالية من السكان في السنوات التالية ، واستوطنتها الحيوانات المتوحشة التي قام الاهالي من العرب المحيطين بطردها من المدينة ([19]) ، وان الناس عجزوا عن دفن موتاهم ، فصاروا يوارونهم التراب في المحل الذي كانوا يقيمون فيه ([20]).وبهذا الوصف وقبل الولوج في متابعة احوال واحصائيات سكان البصرة ، فأننا نقف امام تحدي كبير وخطير يواجه السكان ، وهو مرض الطاعون ، الذي يحدد ويرسم صورة السكان وحالهم امام فشل او انعدام الخدمات الصحية والاجراءات الاحترازية التي تواجه انتشار الامراض والاوبئة .

يذكر نيبور 1765عدم توفر قائمة المواليد والوفيات في الولايات الشرقية من البصرة ، ولد صعوبة في تحديد عدد سكان البصرة على وجه التحقيق ، ويقدر عدد سكان البصرة بمئات الالاف ، لكنه كما يقول ليس بالقدر الكبير الذي كان يضنه الناس ، وتوجد في البصرة سبعون محلة ، كل محلة تحتوي على ما يتراوح بين 300–400 بيتا ، ولكنه يرجح ان لكل محلة مائة بيتا ،وكل بيت يضم سبعة اشخاص وهو المعدل المتوسط ، وبالتالي يقدر سكان البصرة ليس باكثر من خمسين الف نسمة على اكثر تقدير([21]).

يخمن تايلر عدد سكان البصرة في وقت رحلته بانه اكثر بقليل من ثمانية الاف نسمة ، لكن محيط الاسوار واتساعها يدلان على انها كانت تضم في زمن سابق اكثر من هذا العدد عشرة اضعاف، ويقول انه ذكر له ان المدينة كادت تخلو من سكانها سنة 1691 عندما زحف الطاعون عليها ، فالطاعون يعيث فسادا ودمارا في البصرة ، ويذكر اهل البصرة ان هذا المرض ياتي كل تسعة عشر عاما ، والملاحظ انه يقل كلما اتجهنا نحو الشرق ، وان ظهوره له علاقة بالبيئات التي تزرع الزيتون وتنتجه ، ففي الهند حيث لا يعتنى بالزيتون فلا اثر له تقريبا ، بينما يظهر هذا المرض كثيرا بالقاهرة واستنبول فيحصد الارواح بصورة هائلة ([22]).وبالتالي فنحن خلال مدة خمسة وعشرون عاما بين

زيارتي نيبور وتايلر نلاحظ اختلافا كبيرا في عدد السكان ،وفي الوقت الذي قدم فيه نيبور قراءة لطريقة تقدير السكان من خلال عدد المحلات وعدد البيوت وتخمين عدد كل بيت ، في حين توقف تايلر على مسائل اخرى مهمة ان هناك امراض تفتك بالسكان وخاصة الطاعون وتمكن من تحديد الاوقات التي يحدث فيه هذا المرض وايضا ربطه بزراعه وانتاج الزيتون ، ولا يمكن معرفة راي الطب في هذه المسالة هل فعلا للزيتون علاقة بمرض الطاعون . ولكن عموما فأننا في وقت مبكر بالتأكيد لا نمتلك احصائيات دقيقة لعدد السكان، لكننا نقف امام امراض واوبئة تفتك بالسكان وتؤدي الى جعل البصرة مقفرة بالسكان وجعلها تفتقد الى مقومات الحياة والاستقرار.

وفي متابعة لعدد سكان البصرة في بداية القرن التاسع عشر، فقد قدر ميرزا حسن خان عدد سكان البصرة بحوالي 100 الف نسمة ، وهذا العدد لا يشمل الاحساء والعمارة والمنتفك ([23]) ، ،اما بكنهام فيقدر عددهم على اختلاف العصور بين 50-500 الف ، وقدر سكانها في سنة 1816 بانه بين 50-100 الف نسمة ([24])، وباستثناء رواية الرحالة هود الذي يقدر سكان البصرة بثمانية الاف نسمة ، فان روايتي ميرزا حسن خان وبكنهام متطابقة ومتقاربة في تقدير عدد سكان البصرة .

في سنة 1820 وصلت الكوليرا من الهند الى البصرة ، ففتكت فتكا ذريعا فيها ، وقضت على ما يزيد عن الخمسة عشر الف نسمة من اهلها، ومن ثم اخذ هذا المرض يزحف الى الشمال ، وفي الوقت الذي كان فيه الوباء منتشرا ، فقد جاء الفيضان وحاصرهم حصارا تاما ، وقد بذلت جهود في البصرة للحد من مخاطر الفيضان والمرض ، فقد اغلقت ابواب المدينة ، مما خلق عواقب اشد على الناس وزاد من الهلع والخوف ، وقد ادى اشتداد امر الوباء على السكان المحاصرين في الداخل ، فتجاوزت الوفيات فيها ما جرى في بغداد ،وكان من الضحايا الحاكم نفسه الذي ذاق جزء مما صنعت يداه ([25]).

اما كيبل فقد قدر سكان البصرةفي عام 1824 بحوالي ستة الاف نسمة ، ويقدرهم حنا بطاطو عدد في ثلاثينات القرن التاسع عشر بانه تراجع الى 27 الف نسمة بعد ان كان سبعون الف نسمة بسبب الحروب والامراض والفيضانات ([26])،وبالتالي فان الامر لا يخلو من تناقض واختلاف في بعض التواريخ المتقاربة .

ولعل عام 1831 اكثر الاعوام كارثية على اهل البصرة ، اذ يقدر ان حوالي اربعون الف نسمة توفوا خلال ثلاثة اشهر ، كما يشير لوشر في حين يشير لوتسكي ان في احداث عام 1831 فقدت البصرة اغلب سكانها وجعلتها خربه شبه خالية من السكان ، من اصل ثمانون الف نسمة لم يبقى منهم سوى ما بين 5- 6 الاف نسمة ([27]). وهذا رقم كبير يؤكد حجم الضرر الذي يلحقه هذا المرض الفتاك

بسكان البصرة ، واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار تكراره كما تشير اغلب كتب الرحالة فانه سيكون سببا اساسيا في انخفاض عدد السكان ، امام فقدان الخدمات الصحية.

ومرة اخرى كان لانتشار الامراض المتوطنة والاوبئة تأثير كبير على الوضع السكاني، وكان ابرز عامل في التأثير على الوضع السكاني هو انتشار الامراض المتوطنة والاوبئة الوافدة ، وكان طاعونا اليمان في عامي 1773 و1831 اللذان ابادا كثيرا من سكانها وسببا هجرة قسم اخر من السكان ، فضلا عن انه في عام 1846 ظهرت بوادر الكوليرا في البصرة بعد ان فتك الوباء باهل بغداد ([28])، حتى ان سكان البصرة كان في عام 1854 لا يزيد عن خمسة الاف نسمة ، بعد ان كان يربوا عن ستون الفا ([29]).

ويؤكد زويمر ان عدد سكان البصرة في عام 1865 بانه كان 60 الف نسمة بعد ان كان عددهم 150 الف نسمة في منتصف القرن التاسع عشر ، في حين قدرهم واستيد ب 130 الف نسمة في عهد داود باشا ، ([30]). وهناك اشارة اخرى الى ان عدد سكان البصرة في عام 1870 كان يتراوح بين 8-10 الاف نسمة ([31]) ، والاحصائية الاخيرة على الرغم من انها متقاربة في الزمن مع الروايتين السابقتين، الا انها مختلفة كثيرا في الاحصائية السكانية .

عموما فان هناك اتفاق بين الرحالة والباحثين على انه لا توجد احصائية دقيقة لعدد سكان البصرة ، وان الارقام التي تذكر في كتب الرحالة لا تتعدى التخمينات ، لذلك نقف امام ارقام متناقضة ومتذبذبة ، ويعود سبب ذلك عدم العثور على احصائية دقيقة في القرن التاسع عشر ، اذ ان طبيعة السكان متنقلين ، فضلا عن ان الاهالي لا يعطون ارقام حقيقية ، اما خوفا من التجنيد او بسبب عقائد اجتماعية ([32]).

ولكن مع ذلك فان تفشي الامراض في البصرة خلال السنوات 1865-1875 هي وراء الاختلاف والتناقض في عدد السكان ، ففي ايلول عام 1865 تفشى مرض الكوليرا بشكل وبائي ، وتزامن هذا الانتشار للمرض مع موسم التمور ، مما انعكس سلبا على تجارتها ، وفي عام 1870 انتشر المرض نفسه في المدن الايرانية المجاورة للبصرة ، وبالأخص في ميناء بندر بو شهر ، مما دفع السلطات الصحية الى اتخاذ اجراءات وفرض الحجر الصحي على القادمين من ايران ، وعلى الرغم من كل الاجراءات الاحترازية في القرنة والعمارة للمسافرين من البصرة الى بغداد لمنع انتشار المرض الى بقية المدن ، الا ان المرض تفشى في البصرة عام 1871 عن طريق الوافدين من ميناء بوشهر الايراني ([33]). وعاد مرض الطاعون الى البصرة وبقية المدن العراقية في عام 1875.

فضلا عن ذلك فان انعدام الامن والنظام وتردي الوضع الاقتصادي على الاوضاع الثقافية والصحية ، فالدولة العثمانية ينخر في جسدها الضعف ، لذلك انتقلت تأثيرات ذلك على اوضاع العراق

ومدنه ، فنظام الحجر الصحي الذي تأسس في الدولة العثمانية عام 1838 لم يطبق في البصرة ، الا في عام 1864 –1865 ، فالعراق كان مفتوحا امام الامراض والاوبئة الفتاكة ([34]).

فالبصرة تعرضت الى احداث ومواقف اثرت على السكان وادت الى انخفاض في اعداد السكان بسبب الهجرة او نتيجة تفشي الامراض وخاصة ان البصرة انتشرت فيها امراض الطاعون والكوليرا، ولعل عام 1876 كان هناك وباء حصد الكثير من الارواح ، وسبب انتشار الامراض يعود بعضها الى السفن القادمة من الهند ومن بلاد فارس ، فضلا عن الاهمال الذي تعرضت له البصرة بسبب سوء ادارة الولاة واهمالهم للنظافة وترك المستنقعات والبرك بلا ردم ([35]).

على الرغم من اهمية ميناء البصرة الاستراتيجي فانه لم يحظى بالاهتمام المناسب من قبل الدولة العثمانية ، باستثناء فترات محددة ارادت الدولة العثمانية اعادة نشاطها في الخليج العربي ، فقد اتخذ الوالي مدحت باشا 1869–1872 من البصرة مركزا للانطلاق نحو بقية مناطق الخليج العربي ، وقام بعدد من المشاريع وقام بتنظيم وتحديث الميناء ، ورمم جبهة النهر امام دائرة الكمارك لتكون مرسى لتفريغ السفن التي تزن ما زنته 30–50 طنا ، الا ان هذه التحديثات والاهتمامات سرعان ما تلاشت واهمل الميناء ، واعيد الاهتمام مره اخرى في عهد الوالي تقي الدين باشا 1880–1886 ، اذ ادخل بعض الاصلاحات من حيث التنظيم والادارة ، الا ان محاولته ظلت في اطار محدود ولم يكتب لها النجاح ([36]).لذلك فان عوامل في سوء الادارة والانحلال السياسي والاقتصادي الذي تعاني منه الدولة العثمانية ادت الى ان يكون اهتمامها بميناء البصرة قليلا ([37]).

فقد عزم مدحت باشا 1869–1872 على توسيع مدينة البصرة وايصالها الى شط العرب ، فقام بتشييد دار للحكومة ودار اخرى للكمارك وحث المواطنين على بناء دورهم هناك ، لأهميتها التجارية والسوقية، واخذ يشجع الاهالي على الاستقرار في المنطقة وتأجير الاراضي الاميرية لمدة طويلة وامر بتوسيع الميناء وتحسينه، فضلا عن استجابة الشركات الاجنبية لهذه الاجراءات وقامت ببناء المستودعات والارصفة على شط العرب ، وعلى الرغم من ان الدولة العثمانية تابعت في السنوات اللاحقة الاهتمام بالبصرة ، واستيراد رافعة جديدة وتشييد بناية واسعة في المعقل ، الا ان الولاة اللاحقين لم يتابعوا الاصلاحات ويتابعوا الاهتمام ، فعادت البصرة الى الاهمال ([38]).

وامام تفشي الامراض وتردي الحالة الصحية فان الدولة العثمانية شددت على تطبيق التعليمات الصادرة من دائرة الصحة العامة في استنبول ، وانتبهت الى مخاطر انتشار الاوبئة على الحياة العامة وعلى التجارة ، قامت السلطات بفتح مراكز حجر صحي جديدة على اثر انتشار مرض الكوليرا في الحجاز وعدن وبومباي ، فادت هذه الاجراءات الى الحد من انتشار المرض في المنطقة ، وكانت من نتيجة ذلك ان البصرة شهدت تحسنا صحيا في نهاية القرن التاسع عشر ، فقامت السلطات الحكومية

بردم المستنقعات وتحويلها الى اراضي زراعية ، فساهمت تلك الاجراءات في تخفيف حدة انتشار مرض الكوليرا ، الا ان ذلك لم يقضي على الامراض الوبائية بشكل نهائي ([39]).

يشير لوريمر الى تأكيد الحاجة الى ترتيبات طبية لخدمة الجالية البريطانية في البصرة على اثر وفاة روبرتسون مساعد الوكيل السياسي وطفليه في اب عام 1889 واصابتهم بالكوليرا ، وقد قررت حكومة الهند حيال هذه الظروف ان تسهم بمبلغ 100 روبية شهريا لراتب موظف طبي تتعاقد معه المؤسسات البريطانية التجارية لخدمة موظفيها في البصرة ([40]).

لذلك فانه عندما تكون هناك محاولات اصلاحية او خدمات صحية فان ذلك ينعكس على عدد السكان ، فقد اتخذت الحكومة العثمانية اجراءات رادعة ضد العشائر ، فضلا عن ان التطور التجاري بفضل افتتاح قناة السويس ، شجع حركة التجارة ،وشجع عودة اهل البصرة الذين هاجروا منها في اوقات سابقة ، لذلك قدر سكان البصرة في عام 1871 الى انه اصبح ما بين 8–10 الاف ، ووصل العدد في عام 1887 الى اربعين الفا ، وفي عام 1909 كان عدد سكان البصرة ستون الفا ([41]).

ولعل ابرز وادق احصائيات عن السكان ذكرها الكسندر اداموف القنصل الروسي في البصرة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين استنادا للأرقام المأخوذة من النشرة العثمانية الرسمية بولاية البصرة لسنة 1898–1899 التي تعد الارقام والاحصائيات التقريبة ــ فان سناجق البصرة التي تضم البصرة والمنتفك والعمارة والحسا عدد سكانها هو 935،595،000 نسمة ، وليس هناك فروقات كبيرة في عدد النساء الى عدد الرجال ([42]).

وفضلا عن عدم توفر احصائيات سكانية دقيقة ، فان هناك مسالة اخرى كانت وراء التناقض في الاحصائيات السكانية للبصرة ، وتفسير الاسباب التي ادت الى انخفاض عدد السكان ، واكد او اجمع الرحالة الذين زاروا البصرة في مختلف الاوقات على مرض الطاعون الذي حصد الاف الارواح ، فضلا عن اسباب اخرى تتعلق بالإهمال وسوء الادارة .

لذلك فان انتشار الامراض والفقر والجوع وسوء الاوضاع هي عناصر تسبب هلاك السكان، فللخراب الذي اصاب البصرة اسباب منها الطاعون ، وكثرة المظالم وكثرة عدد المتصرفين الذين ظلموا اهل البصرة ، فشاع فيها الجوع والمرض ([43]).

وبالاضافة الى الامراض وسوء الادارة فان العشائر في عهد مدحت باشا يؤلفون ثلاثة ارباع سكان العراق تقريبا ، كانوا في قتال متصل فيما بينهم تارة ، وفيما بينهم وبين الحكومة تارة اخرى ، والسبب يعود الى عدم تملك العشائر للارض مما جعلهم يتنازعون على الاراضي ، وكان راي مدحت باشا بتفويض الاراضي الاميرية الى العشائر ببدل زهيد ([44]) ، مما خلق حالة من الصراع والخلاف

والاضطراب والفوضى بين القبائل مع بعضها من جهة وبينها وبين الحكومة من جهة ثانية ، فادى الى مزيد من الفوضى والاضطراب .

وقام الدكتور بوريل الذي كان يتراس محطة الحجر الصحي في البصرة في تسعينات القرن التاسع عشر بفحص سنتمتر مكعب من الماء اختاره من منطقة يستعملها السقاة ، فأكد بعد ان كرر التجربة والفحص عدة مرات وجود جراثيم التيفوس والدزانتري والامراض المعدية الاخرى بنسبة كبيرة ([45]) ، لذلك فنحن امام ظاهرة صحية اجتماعية خطيرة ساهمت في تكوين بيئة لانتشار الامراض والاوبئة ، فضلا عن انها تتأثر بالمدن المحيطة بها من الدول المجاورة التي تنتشر فيها الامراض والاوبئة.

وانعكست اثار الامراض والاوبئة على تجارة البصرة واحوالها ، وادى الخوف والرعب بين صفوف الناس وايضا لدى المؤسسات الاجنبية على استيراد منتجات البصرة ، وايضا ادى الى فرار وهجرة اثرياء المدينة هربا من الامراض ، في وقت كانت فيه دوائر الحجر الصحي المنتشرة على طول شط العرب من الفاو حتى البصرة ، كانت تعمل بمستوى مسؤولية متدنية من جهة وتتميز بضعف الامكانيات المادية والفنية وعدم امتلاك الابنية المناسبة من جهة اخرى ([46]).

مضامين وتصورات ختامية

• ان دراسة احوال السكان تعد من الدراسات المهمة في الدراسات التاريخية والاجتماعية، وهي توثيق ودراسة وقراءة لحياة المجتمعات والشعوب، فضلا عن ان البصرة تشكل مفصلا مهما في تاريخ العراق، وتعد مدينة وولاية مهمة في عهد الدولة العثمانية، وشهدت ساحتها تطورات واحداث غاية في الاهمية .

• وخلال دراسة حالة واوصاف البصرة واوضاع السكان فيها، تبرز مسالة مهمة تواجه الباحثين والمتابعين، تتمثل في غياب وثائق ومعلومات سكانية دقيقة، فاعتمدت الدراسات على تخمينات الرحالة والباحثين، لذلك فان هناك احيانا بعض المواقف يكون تناقضا واختلافا في الارقام والاحصائيات السكانية .

• ولكن مع ادراك اهمية المعلومات والاحصائيات الدقيقة في انها السبب وراء عدم الدقة في وصف السكان واحصائهم، الا ان هناك مسالة اخرى يكاد يتفق عليها المؤرخون والرحالة والباحثون هو انتشار الامراض والاوبئة في البصرة طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، اذان التفاوت في الاحصائيات السكانية، وفي احوال مدينة البصرة وعمارتها واستقرارها وازدهارها يكون مرده الامراض التي تفتك بالسكان، وان تكرار تعرض المدينة للطاعون والامراض الاخرى .

• وتوقف البحث عن مسالة اخرى رافقت تاريخ البصرة وانعكست على احوالها وسكانها، وهي سوء ادارة المتصرفين والولاة الذين تولوا البصرة، وان الصفة الغالبة عليهم هي سوء الادارة والفساد، وهذا الامر ايضا ياتي في ظروف كانت فيه الحكومة المركزية تفتقد إلى القدرة على الادارة واحكام السيطرة، وافتقاد القدرة على القيام بتنظيمات وخدمات صحية، وبالتالي افتقدت ادارة البصرة القدرة على مواجهة المشكلات والامراض .

الهوامـــش

[1]رحلة نيبور الكاملة الى العراق ، ترجمة سعاد هادي العمري ، مراجعة وتعليق وتقديم سالم الالوسي ، ط/1 ، بغداد 2012 ، ص/46.

[2]المصدر نفســه ، ص/49.

[3] حسين محمد حسين القهواتي ، دور البصرة في الخليج العربي 1869-1914 ، اطروحة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب جامعة بغداد عام 1978 ، ص/31 .

[4]مشاهدات جون اشتر في العراق ، بقلم جعفر خياط ، نقلاعنرحالةاوربيونفيالعراق،ط/2 ،دارالوراقللنشر،بيروت 2010، ص/177.

[5]رحلة تنكو اينهولت ، عرض مير بصري ، نقلا عن رحالة اوربيون في العراق المصدر السابق ، ص/185.

[6]علي ظريف الاعظمي ، مختصر تاريخ البصرة ، مطبعة الفرات ، بغداد 1927 ،ص/155 .

[7] حدود سياحتنامه سي، رحلة خورشيد باشا إلى العراق وكردستان ، تحرير وتعليق أحمد عبد الوهاب الشرقاوي ، المركز الثقافي الآسيوي ، مشـــروع الرحـــلات .(والابلة اليوم مدينه عامرة من مدن البصرة وتقع في مركز البصرة)

[8]أ.ج.سوانسن كوبر ، رحلة في البلاد العربية الخاضعة للاتراك ، ترجمة صادق عبد الركابي ، ط/1 ، الاردن 2002 ، ص/296.

[9]رحلة تايلر الى العراق ، نقلا عن رحالة اوربيون في العراق ،المصدر السابق ،ص/157.

[10] نقلا عن أ.ج سوانسن كوبر ، رحلة في البلاد العربية الخاضعة للاتراك ، ترجمة صادق عبد الركابي ،ط/1 ، الاهلية للنشر والتوزيع ، بغداد 2004 ، ص/341 .

[11]حسين محمد حسين القهواتي ، المصدر السابق ، ص/36 .

[12]المصدر نفسه ، ص/34 .

* منذ السنوات الاولى لتأسيس البصرة فإنها نظمت على اساس قبلي وهاجرت اليها القبائل العربية بعد الاحداث العسكرية التي شهدتها ، واحتفظت بهويتها القبلية من الناحية الاجتماعية ، ولعل بني تميم وقبيلة بكر بن وائل من اقدم القبائل التي سكنت البصرة ، وتعد قبيلة تميم من اكبر القبائل التي سكنت البصرة ، ولعبت دورا اساسيا في الحياة السياسية والاجتماعية ، وكان عددهم في عهد خلافة الامام علي عشرة الاف مقاتل ، وايام يزيد بلغ عددهم عشرين الف مقاتل ،والقبيلة الاخرى التي لا تقل شانا في العدة والعدد هم بني بكر بن وائل التي تشكل نسبة عالية من سكان البصرة ، ثم قبيلتي عبدالقيس والأزد الذين نزلوا البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.(رباب جبار طاهر السوداني ،جبهة البصرة ، دراسة في احوالها العسكرية والادارية والاجتماعية والمالية للفترة من 632-661 ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب جامعة البصرة ، عام 1989 ،ص/113).

[13] حدود سياحتنامه سي، رحلة خورشيد باشا إلى العراق وكردستان ، تحرير وتعليق أحمد عبد الوهاب الشرقاوي ، المركز الثقافي الآسيوي ، مشروع الرحلات

[14]أ.ج سوانسن كوبر ، رحلة في البلاد العربية الخاضعة للاتراك ، ترجمة صادق عبد الركابي ،ط/1 ، الاهلية للنشر والتوزيع ، بغداد 2004 ، ص/299 .

[15]المصدر نفسه ، ص/344 .

* الاعاجم من الناحية التاريخيةوبالاضافة الى القبائل العربية ، فقد استوطن البصرة عدد من الاعاجم الذين اطلق عليهم الموالي وهم قسمين ، الاول الذين حرروا واعتقوا بعد اسلامهم ، وكانوا اسرى الحروب التي خاضتها الجيوش الاسلامية في بلاد فارس ثم اعتنقوا الاسلام ، فاتقهم اسيادهم واصبحوا موالي لديهم ، اما القسم الثاني فهم الاحرار الذين تعرضوا الى السبي والاسترقاق ، واستوطنوا البصرة بإرادتهم او تحالفوا مع القبائل العربية . (رباب جبار طاهر السوداني ،جبهة البصرة ، دراسة في احوالها العسكرية والادارية والاجتماعية والمالية للفترة من 632-661 ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الآداب جامعة البصرة ، عام 1989 ،ص/118)

[16]محمد ضايع حسون الجبوري ، البصرة ،دراسة في اوضاعها السياسية والاجتماعية ، اطروحة دكتوراه مقدمة الى كلية التربية الجامعة المستنصرية عام 1998،ص/164.

[17]المصدر نفســه ،ص/161.

[18]الكسندر اداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة هاشم صالح التكريتي ، ط/2 ، بغداد 2011، ص/141 .

* سكنت البصرة جماعة من العباسيين والعلويين ، وايضا ان من الاسر البصرية المشهورة التي سكنت البصرة بيت بني الدويرة ن ومن البيوتات ايضا بنو الباباي.(محمد ضايع حسون الجبوري ، المصدر السابق،ص/159).

[19]أ.ج سوانسن كوبر ، المصدر السابق ، ص/343 .

[20]جيمس بيلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد في عام 1834 ، ترجمة جعفر الخياط ، بغداد 1964 ، ص/107.

[21]رحلة نيبور الكاملة الى العراق ، المصدر السابق ، ص/59.

[22]رحلة تايلر الى العراق ،نقلا عن رحالة اوربيون في العراق ،ط/2 ، دار الوراق للنشر، بيروت 2010 ،ص/102-106.

[23] ميرزا حسن خان ، ولاية البصرة ،ترجمة محمد وصفي ابو مغلي ، ص/65 ، نقلا عن الهام محمود كاظم الجادر ، المصدر السابق ،ص/161.

[24]الهام محمود كاظم الجادر ، المصدر السابق،ص/161.

[25]جيمس بيلي فريزر، رحلة فريزر الى بغداد في عام 1834 ، ترجمة جعفر الخياط ، بغداد 1964 ، ص/113.

[26]الهام محمود كاظم الجادر ، المصدر السابق ،ص/161.

[27]المصدر نفسه ،ص/161.

[28] علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ، ج/2 من سنة 183-1872 ، مطبعة الارشاد ، بغداد 1971، ص/145.

[29]حسين محمد حسين القهواتي ، المصدر السابق ، ص/31 .

[30]الهام محمود كاظم الجادر ، المصدر السابق ،ص/161.

[31]الزوراء العدد 147،130 ، نيسان 1871 . نقلا عن محمد عصفور سلمان ، العراق في عهد مدحت باشا 1869-1872 ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب جامعة بغداد 1989 ،ص/79 .

[32]الهام محمود كاظم الجادر ، المصدر السابق ،ص/159.

[33] الزوراء ، الاعداد 128، 130،،129 عام 1871 ، نقلا عن حسين محمد حسين القهواتي ، المصدر السابق ، ص/34 ؛ محمد عصفور سلمان ، المصدر السابق، ص/73.

[34]محمد عصفور سلمان ، المصدر السابق ، ص/35 ، **نقلا عن لوريمر ، ج6 ص/3650.**

[35]الهام محمود كاظم الجادر المصدر السابق ،ص/160.

[36]طالب جاسم محمد الغريب ، ميناء البصرة .. دراسة تاريخية 1915-1956 ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب جامعة البصرة عام 1984 ، ص/35.

[37]طالب جاسم محمد الغريب ، المصدر السابق ، ص/37.

[38]حسين محمد حسين القهواتي ، المصدر السابق ، ص/34 .

[39] حسين محمد حسين القهواتي ، دور البصرة في الخليج العربي 1869-1914 ، اطروحة دكتوراه مقدمة الى كلية الاداب جامعة بغداد عام 1978 ، ص/42 .

[40] لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، الجزء /4 ،ص /2340.

[41]حسين محمد حسين القهواتي ، المصدر السابق، ص/32 .

[42]الكسندر اداموف ، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها ، ترجمة هاشم صالح التكريتي ، ط/2 ، بغداد 2011، ص/141 .

[43]ابراهيم صبغة الله الحيدري البغدادي ، عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد ، مطبعة مدبولي ، ص/154.

[44]علي الوردي ، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ، ج/2 من سنة 183-1872 ، مطبعة الارشاد ، بغداد 1971 ،ص/247.

[45]حسين محمد حسين القهواتي المصدر السابق ، ص/38 .

[46]حسين محمد حسين القهواتي المصدر السابق ، ص/39 .

Research Summary
Basra under Ottoman rule
Study in the description of Basra and its inhabitants during the nineteenth century

The studies concerned with the reality of life and social studies are important in understanding the reality of the life and history of communities, so they received ample attention in the books trips and academic studies, and perhaps the most prominent area of social studies is related to humans and the reality of his life, so I chose my research because addresses the issue of specific care study Description of Basra and its population in terms of demographic composition and population factors and conditions that the light is determined population size, Therefore, the study of the conditions of the people of Basra was associated significantly with reality administrative and political neglect that characterized the conditions of Iraq and the conditions of Basra, particularly during the reign of the Ottoman Empire , as well as it relates closely to reality health , as it took diseases and epidemics kill populated , receiving negative repercussions on public life and trade , so the study descriptions of Basra and conditions and population have importance in the field of historical studies of the conditions of Iraq under the Ottoman administration , and in particular the conditions of Basra in the nineteenth century, has used a variety of sources to address the study of the conditions of Basra and its inhabitants , and perhaps the most prominent of these sources wrote travelers who have visited Basra and wrote about the conditions, as well as other historical academic studies.